

حديث القرآن عن حوار الفكر وفكرة الحوار

حديث القرآن عن حوار الفكر وفكرة الحوار

سماحة الشيخ احمد المبلغي

المقدمة :

قد أولى القرآن الحوار أهمية بالغة إلى حد لم ينظر إليه كوضع مقبول وشأن مطلوب فحسب، بل ذهب إلى أبعد وأعمق من ذلك، واعتبر أن الحوار وسيلة قوية لاستحضار العقل ومنطلق داعم للحركة الاجتهادية في الفكر الإنساني وأرضية مشتركة للحركة السياسية والاجتماعية والفكرية في المسائل الاختلافية ومجال شامل لإيجاد العلاقات والأواصر الاجتماعية. وبتعبير آخر خرج الحوار في القرآن عن حدود كونه ذا وضع مطلوب ليبلغ مستوي خصلة إنسانية لا يمكن تفكيكها عن الحياة الدينية واللامادية . القرآن هو كتاب حوار، يأتي بقصص الحوار ويحكي حوار القصص، يعطي فكرة الحوار ويروي حوار الفكر، دعوته إلى الحوار وحواره للدعوة، هدفه الحوار وحواره للهدف، يبني الديانة والحضارة على الحوار ويدعو إلى حوار الديانات و الحضارات. يريد هذا الكتاب الحواري إنشاء مجتمع حوارى لكي يفكر بكل حرية ويختار بكل إرادة، ويريه أنه سيختار سلوكاً واعياً يتناسب مع عمق فطرته التي فطره الله عليها.

هذا المقال نريد من خلاله التعرف على مكانة الحوار وثقافته من وجهة نظر القرآن. وقد توزعت مواضيع

- تعريف الحوار وفرقه مع الجدال

- مكانة الحوار حسب الرؤية القرآنية

- ثقافة الحوار حسب الرؤية القرآنية

المحور الأول :تعريف الحوار وفرقه مع الجدال

الف. تعريف كل من الحوار والجدال :أما الحوار فهو من المُحاورَة ؛ وهي المُراجعة في الكلام. قال الزبيدي في تاج العروس :الحوار أي المحاورَة (و) المحاورَة المجاوبة و (مراجعة النطق) والكلام في المخاطبة وقد حاوره (وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم) وهم يتراوون ويتحاورون.[1] وقال الطبرسي : والتحاور :التراجع، وهي المحاورَة، يقال :حاوره محاورَة أي :راجعه الكلام، وتحاور. [2]و قال العلامة الطباطبائي :المحاورَة المخاطبة والمراجعة في الكلام[3]

وأما الجدال، فقال الراغب الاصفهاني في تعريفه :

الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته ودرع مجدولة. والاجدل الصقر المحكم البنية، والمجدل القصر المحكم البناء، ومنه الجدال فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل الاصل في الجدال الصراع وإسقاط الانسان صاحبه على الجدالة وهي الارض الصلبة، قال ابن تعالى : (وجادلهم بالتى هي أحسن - الذين يجادلون في آيات الله - وإن جادلوك فقل الله أعلم - قد جادلتنا فأكثرنا جدالنا - وقرئ - جدلنا - ما ضربوه لك إلا جدلا - وكان الانسان أكثر شئ جدلا) وقال تعالى : (وهم يجادلون في الله - يجادلنا في قوم لوط - وجادلوا بالباطل - ومن الناس من يجادل في الله - ولا جدال في الحج - يا نوح قد جادلتنا) [4]

وقال القرطبي :والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة... ويقال للمقرر أيضا أجدل لشدته في الطير.[5]

وقال الطباطبائي : ... وهو الحجة التي تستعمل لقتل الخصم عما يصر عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذه عليه من طريق ما يتسلمه هو والناس أو يتسلمه هو وحده في قوله أو حجته[6]

ب. الفرق بين الحوار والجدال :ويتم البحث عن وجود الفرق بينهما أو عدمه من زاويتين :

الزاوية الأولى :الفرق بينهما من حيث الإحتواء أو عدم الإحتواء للمعني السلبي :وقد برز من هذا الحث اتجاهان :

الاتجاه الأول :أن للجدل معنيّ سلبيّا بخلاف الحوار؛ والدليل الذي قد يطرح لإثبات ذلك أن القرآن يركز في مواقع كثيرة على الحوار، بينما نرى أن القرآن يذكر الجدل في المواضع غير المرضي عنها وكأنه يستنكر الجدل. يقول في الدرا المنثور :أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله وكان الانسان أكثر شئ جدلا قال الجدل الخصومة خصومة القوم لانبيائهم وردهم عليهم ما جاؤا به وكل شئ في القرآن من ذكر الجدل فهو من ذلك الوجه فيما يخاصمونهم من دينهم يردون عليهم ما جاؤا به وإِ أعلم[7]

الاتجاه الثاني :أنه ليس للجدل أيضا معني سلبي كما في الحوار؛ وهذا الاتجاه للكثير من مفسري الشيعة والسنة :

منهم العلامة الطباطبائي، فإنه بعد أن اعتبر أن الجدل الوارد في القرآن نفس الجدل المنطقي قال :انه سبحانه قيد...الجدال بالتي هي أحسن ففيه دلالة على أن من الجدل ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن.... والمجادلة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة ثم الحسنة إلى التي هي احسن وقال أيضا :والجدال أحوج إلى كمال الحسن من الموعظة ولذلك أجاز سبحانه من الموعظة حسننها ولم يجز من المجادلة إلا التي هي احسن .وذهب إلى أبعد وأكثر من ذلك في موضع آخر من كلامه واعتبر أن المجادلة يمكن أن تكون من أقسام الدعوة وأساليبها وقال في ذلك :ذكر البعض إن المجادلة بالتي هي احسن ليست من الدعوة في شئ بل الغرض منها شئ آخر مغاير لها وهو الالتزام والافحام قال ولذلك لم يعطف الجدل في

الاية على ما تقدمه بل غير السياق وقيل وجادلهم بالتى هي احسن. وفيه غفلة عن حقيقة القياس الجدلي فالافحام وان كان غاية للقياس الجدلي لكنه ليس غاية دائمية فكثيرا ما يتألف قياس من مقدمات مقبولة أو مسلمة وخاصة في الامور العملية والعلوم غير اليقينية كالفقه والاصول والاخلاق و الفنون الادبية ولا يراد به الالتزام والافحام. على ان في الالتزام والافحام دعوة كما ان في الموعظة دعوة وان اختلفت صورتها باختلاف الطرق نعم تغيير السياق لما في الجدل من معنى المنازعة والمغالبة.[8]

ومنهم القرطبي حيث قال :والجدل في الدين محمود، ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أنجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدل لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه[9]

والنتيجة التي ننتهي اليها أنه لاينبغي لنا أن نطن بأن الجدل مفعم بمفهوم سلبي بحيث لايبدو معني ولامصداق لتركيب "الجدل الإيجابي " ففي القرآن موارد معتد بها من استخدام معني هذا التركيب، فالجدل ليس أمراً سلبياً بحد ذاته بل ما رافقه من أوضاع – من قبيل التعصب والجهل - هو الذي منحه طابعاً سلبياً. على أنه بلحاظ كثرة تحقق هذه الحالة، أي اقتران الوضع الفطري للانسان في الجدل مع شؤون سلبية، تركت انطباع عدم رضا القرآن عن الجدل الذي لاتترتب عليه فائدة.

يقول أحد الكتاب :(...) أما كلمة الحوار فهي ذات مضامين معرفية ومدلولات واسعة... صحيح أن كلمة الجدل تنطوي على مفاهيم الأخذ والرد الذي يتحول بموجبه الحوار إلى مجرد جدل عقيم سلبي تكمن الغاية منه في ممارسة ذات الجدل فحسب، دون وجود أهداف حقيقية، لأن المسألة المتحركة في هذا الاتجاه، قد تتحول عند بعض المتجادلين إلى لقلقة فكرية دون محاولة الدخول إلى صلب القناعة الراسخة أو الحقيقة الهادئة... لكن يبقى الجدل متصلاً بأصل وجودنا كأناس نحاول أن نتقرب حركة الأحداث، ونفسرها وفق مجريات وقائعنا وتصوراتنا عن أمور الحياة والوجود بما يتصل مع حركتنا اليومية)[10]

الزاوية الثانية :تعيين النسبة بينهما

ونواجه من هذا حيث فروضاً وهي ما يلي :

الفرض الأول :هما اصطلاحان لمعني واحد

حسب هذا الفرض، يمتلك هذان الاصطلاحان معني واحدًا ، وهو عبارة عن المناقشة بين طرفين أو أطراف، يكون المقصود بها في بعض الموارد إظهار حجّةٍ لإثبات حقٍّ، أو دفع شبهةٍ، وفي موارد أُخرى تصحيح كلامٍ، أو ردُّ قول فاسد.

الفرض الثاني :هما اصطلاحان لمعنيين مختلفين

حسب هذا الفرض، يمتلك كل من الاصطلاحين معني خاصاً يختلف عن المعني الذي للآخر.

والذين قبلوا هذا الفرض يمكن تقسيمهم على اتجاهين :

الاتجاه الأول :يري أن الحوار والجدل وإن التقيا في كونهما بمعني حديث أو مناقشة بين طرفين غير أنهما يفترقان في أن الحوار هو مراجعة الكلام والحديث بين طرفين بحيث ينتقل الحديث من الأول إلى الثاني،ثم يعود إلى الأول.. وهكذا دون أن يلحظ مستمع أو مراقب أن بين الطرفين ما يدل على وجود خصومة. أما الجدل فهو التخاصم بالكلام، والنقاش المحتد المفعم بالعناد والتمسك بالرأي والتعصب.

الاتجاه الثاني :يري هذا الاتجاه أن الحوار له أصول لو لم تراع تلك الأصول حال الحوار، فإنه ينقلب ذلك إلى مفهوم آخر مختلف عنه تماما اسمه الجدل.

الفرض الثالث :هما اصطلاحان لمعنيين بينهما العموم و الخصوص

وهذا الاتجاه لمن ذهب إلى أن الحوار ينقسم إلى قسمين :الحوار البنّاء والحوار غير البنّاء، وغير البنّاء هو الجدل.

المحور الثاني :مكانة الحوار حسب الرؤية القرآنية

تأتي المطالب في توضيح ذلك تحت العناوين التالية :

* حقائق كونية تقوم عليها إمكانية ومعقولية الحوار

* نظرة القرآن إلى دور الحوار في الحياة الإنسانية

* انعكاس مكانة الحوار في القرآن من خلال رواياته للحوارات

1 - حقائق كونية تقوم عليها إمكانية ومعقولية الحوار :

هناك حقائق كونية حول الإنسان طرحها القرآن الكريم، تمثل هي إطاراً فطرياً وكونياً تتشكل وتتكون على أساسه مصداقية وإمكانية الحوار للإنسان أو معقوليته له ونقول في توضيح ذلك: إنه يختلف الوضع الفطري بين البشر والملائكة في المجالات التالية :

الف) الاعتقاد بالحق؛ إن الإنسان خلافاً للملائكة - والذين هم مفطورون على اعتقاد الحق [11] - لم يفطر على امتلاك الإيمان والاعتقاد بالحق منذ الاول، بل كان مفطوراً على استعدادات نفسية وإمكانات عقلية، تنهياً بها الارضية لأن يسعى لأدراك الحق والإيمان به.

ب) الإنقياد للحق؛ إن الإنسان خلافاً للملائكة - والذين كانوا مفطورين على الإطاعة الدائمة [] سبحانه - قد فطر على الاختيار، فالإطاعة ليست حالة دائمية له، بل تتم عبر إرادته و إختياره فإن شاء يعبد وإن شاء يكفر يقول عز من قائل: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[12] ويقول سبحانه فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[13] ويقول سبحانه في آية أخرى: إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً[14].

ج) اختلاف البعض مع البعض؛ إن الإنسان خلافاً للملائكة - وهم المفطورون على

عدم الاختلاف و التشعب [15] - قد خلقوا مختلفين، وقد نبه القرآن على ذلك في الآية الكريمة: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا لَئِنْ شَاءَ رَبُّكَ لَإِذْلَكَ خَلْقَهُمْ [16]

وهذا الاختلاف يعد من السنن الإلهية التي لا تبدل لها ولا تحويل؛ يقول سبحانه وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

وفي التعرض للاختلاف في اللغة تنبيه إلى وجود اختلافات طبيعية أخرى لدى الناس ؛ حيث إن الاختلاف في اللغة متأثر من عدة عوامل من أهمها اختلاف الناس في العقول والصفات والطباع والمعنويات، كما أن الاختلاف في اللغة كان بدوره من العوامل المؤثرة في نشوء التعددية في الآراء والمُدرَكَات والتوجهات والاتجاهات بين الناس.

وغير خفي أن اعتبار الاختلاف في الخلقة كأساسٍ فلسفيٍّ للحوار يتم انطلاقاً من أن الحوار لا يمكن أن يكون ممكناً ومعقولاً إلا فيما إذا كان هناك اختلاف، وبتعبير آخر إن الواقعية التي تبتني عليها إمكانية - بل ومعقولية الحوار- هي وجود الاختلاف الفكري لدى الناس.

د. الجدال ؛ يري القرآن الرغبة والسعي لأجل الحوار من ضمن خصال البشر الذاتية، خلافاً للملائكة وهذا ما يستفاد من هاتين الآيتين التاليتين :

* يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون وفقاً لهذه الآية فإن الجدال من خصائص الإنسان يوم القيامة، فهو يجادل حتي في لحظات الحساب يوم يجازي الإنسان على أعماله، ومع الأخذ بنظر الاعتبار زوال صفات الانسان العرضية يوم القيامة، فإنه يمكن اعتبار بقاء الجدال في الآخرة دليلاً على ذاتية هذه الخلقة. ومن ذلك كله نخلص إلى القول بفطرية وذاتية خصلة الحوار (أو فقل : السعي المنتهي إلى الحوار) لدى الإنسان.

* وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً بناءً على هذه الآية يكون الجدال من جيلة الإنسان، وأنه جزءٌ من وضع فطري يسعي باقتضائه لمتابعة الحوادث وحدها أو التنبؤ بها وتفسيرها بما ينسجم مع تجاربه وتصوراته ورغباته. وخصلة الجدال توجد في الإنسان في أصعب وأحلك الظروف .

وبهذا كله ننتهي إلى أن هناك مبادئ فلسفية أربعة حول خلقه الإنسان ، وهي :

الف) كون الإنسان مفطوراً على الفكر

ب) كون الانسان مفطوراً على الإختيار

ج) كون الاختلاف لدى الناس سنة كونية

د) كون الجدال خصلة فطرية للإنسان

والفرق بين هذه المبادئ أن فطرية الجدال للإنسان تفيدها المبادئ الثلاثة الأولى بمعونة التحليل، بينما المبدأ الأخير ينص عليها.

ومع قطع النظر عن هذا الفرق فإن جميع المبادئ الأربعة تمثل وجود وضعية للإنسان تدعوه بصورة فطرية إلى الحوار، كما تفتضي اعتبار الحوار كأمر ممكن ومعقول، بل وضروري للإنسان.

2 - نظرة القرآن إلى دور الحوار في الحياة الإنسانية :

إنه يستفاد :

أولاً : كون الحوار أرضية خصبة لحصول المعنوية والكمال الديني

من وجهة نظر القرآن يعد الحوار مجالاً للعلاقات الانسانية وأرضية خصبة للمعنوية فالقرآن يربط بوضوح بين مصير الانسان المعنوي والحوار ويرى أن بينهما ارتباطاً وثيقاً وثابتاً. وهذا الدور يمكن استفادته من الأمرين التاليين :

الأول : كون الحوار حاطياً بتوجه البشارة الإلهية إليه .

وهذا ما يستفاد من الآية الكريمة : فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه

يمكن إثبات مكانة الحوار في هذه الآية من خلال ذكر النقاط التالية :

النقطة الاولى : إنه طرح في هذه الآية ثلاثة عناصر هي : "القول" و "استماع القول" و "اتباع احسن القول" وبذلك تتشكل ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : تبلور أجواء تبادل الآراء والأقوال.

بتبلور فضاء تبادل الآراء والأقوال – والذي يعد الحوار وضعاً أكثر انسجاماً له -

تظهر الرؤى المختلفة والمتفاوتة.

المرحلة الثانية :استماع القول والتعرف على ما استبطن من نكات ومقالات أحسن.

المرحلة الثالثة :اتباع الأحسن.

الكثير يتحاور لكي يثبت ما يعتقد به ويتبعه، ومن وجهة نظر القرآن تقع مكانة الاتباع في مرحلة لاحقة للاستماع، ولو لم يقع الاتباع ليكون معني للبشارة. فإن اتضاح الحقائق والواقعيات رمز تبلورت البشري الإلهية بلحاظه.

ملخص القول :ما لم تتحقق المرحلة الاولى للحوار لاتتبلور أرضية لاستماع القول والتعرف على ما استبطن من نكات هي الأحسن، وما لم تترجم المرحلة الثالثة (الاستماع والتعرف على القول الأحسن) إلى عمل لاتتوافر أرضية اتباع الكلام الأحسن.

النقطة الثانية :أينما استخدم □ سبحانه مفردة "عبادي" وما شابهها، لبيان العلاقة بينه وبين البشر، عرض من خلال ذلك أعمق الأفكار وأساسياتها. ومن خلال اعتبار هذا القلب البياني (إيجاد النسبة بنحو خاص بين □ سبحانه و عباده) ملاكاً وحاكياً عن عمق وأصالة الفكر يمكن الوقوف على علو منزلة الحوار؛ وذلك لان هذا القلب البياني استخدم في باب الحوار ؛ حيث قال عز من قائل "بشر عبادي الخ"

النقطة الثالثة :مع الأخذ بنظر الاعتبار أن بشارة القرآن توجهت إلى نعم هي الأكثر أصالة وحقيقة فإن استخدام مفردة "بشر" فيما يخص موضوع الاستماع و اتباع أحسن الكلام يحكي المستوي الرفيع للحوار و كونه حاطياً بمنزلة مصيرية في الحياة المعنوية بالإضافة إلى دوره في الحياة المادية للانسان.

الثاني :محورية الحوار في الدعوة

إن القرآن لا يرى وحدة في الفضاء الذي تبلورت فيه دعوة الرسل، بل ا سبحانه طلب من الرسل أن يبدوا دعوتهم بالحوار فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى [18]

لاشك أن الدعوة إلى الحق أحد المظاهر الاساسية في هذا الكتاب ؛ لو لم نقل بأنها الأساس . واللافت هنا كون هذا المظهر الهام والمحوري حاصلًا في إطار دعوة صريحة للحوار، ومن باب المثال وردت الآيات التالية :

* اُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن [19]

* قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين [20]

مضافاً إلى ذلك فإن سيرة النبي الأكرم وباقي الأنبياء شاهد على أن طريق الدعوة والهداية يمر عبر الحوار، وقد كان للحوار والجدال الدور المصيري في هذا المجال، كما ينقل لنا القرآن والتاريخ، ولم ينقل لنا التاريخ هداية رسول اُمته بسيف صارم او وعود دنيوية خادعة، بل الحوار كان دائماً بمثابة الجسر لنقل الهداية الإلهية إلى البشرية.

ثانياً :كون الحوار آلية لاستحصال القابليات المكنونة في الإختلاف الطبيعي الحاصل بين البشر

إنه كما ذكرنا لا شك في أن الإختلاف يكون من الاُسس القائمة عليها النظام الكوني الالهي وأنه يعد من السنن الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل، كما لا شك أن الاختلاف لو لم يتم ترشيده فسوف ينتهي بالإنسان ومجتمعه إلى مهالك عظيمة ومخاطر جسيمة، بينما أنه لو تم توظيفه نحو الرشد فسوف ينتج فوائد عظيمة باهرة، فانطلاقاً من ذلك كله فإنه لابد من وجود آلية فعالة للتعامل مع هذه الحقيقة الفطرية، وهذه الآلية أرشدنا القرآن إليها واعتبر أنه الحوار فهو الذي يمكننا من الاستفادة من فوائد قضية الاختلاف الفطري ويجنبنا عن الوقوع في مخاطرها العظيمة.

3 - انعكاس مكانة الحوار في القرآن من خلال رواياته للحوارات

الحوار في القرآن ليس موضوعاً نادراً، هناك مجموعة متنوعة من الحوارات رواها القرآن لنا في

المجالات المختلفة، والنظر إلى هذه المجموعة المتنوعة سيكشف لنا عن درجة أهمية الحوار ومكانته في رؤية القرآن. وفيما يلي توضيح لأبعاد انعكاس هذه الدرجة تحت محاور :

الأول :كمية حواميات القرآن للحوار

يمكن عرض كمية رواية القرآن للحوار من خلال الإحصائيات التالية :

تكرر مفردة "قال" 527 مرة.

ورود مادة الجدل في 29 مورداً، وكثير من هذه الموارد استبطنت رواية الحوار.

تكرر مادة الحوار (سواء على وزن مفاعلة أو وزن تفاعل) في موارد ثلاثة وهي ما يلي :

* (... فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) [21]

* (... قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً...) [22]

* (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) [23]

- ورود قصص الحوار في القرآن أكثر من 500 مرة.

الثاني :منهج رواية الحوار في القرآن

وهذه المنهجية تتضح من خلال ذكر نكتتين، وهما :

أولاً : منح الحوار مكانة يتمحور حوله كل شيء

عندما يطرح القرآن قصة تتضمن حواراً بين طرفين أو أطراف، يعكس المراحل الواردة في القصة بصورة يتصور القاريء المتأمل أن الحوار هو المحور الأساس لها وأنه العنصر الأساس الذي يأخذ كل شيء ورد في القصة معناه منه ؛ وبتعبير آخر إن القرآن في خلال ذكره للقصص يمنح الحوار محوريةً إلى درجة يظهر كأنه هي الروح الواقعية التي تجري في جميع مراحل ما يرويها من حكاية أو قصة ؛ فمثلاً إن القرآن عند ما ينتهي الحوار الفائم بين طرفين في قصة إلى مستوى الإهانة والايذاء وما شابهه، لا يترك الحوار ولا يلقيه إلى جانب، بل يختار أسلوباً يكشف لنا عن الهزيمة الحوارية لأحد الطرفين. ومثل هذا المنهج يتضمن التأكيد على منطق الحوار، وأن الحوار في هذه الموارد يحظى بأهمية تفوق الرواية إلى حد تنعدم أهمية كل شيء في قبالة. ويمكن مشاهدة نماذج لإستخدام هذا المنهج في عدة الموارد من القرآن :
منها الموارد التالية :

- يحكي القرآن فقدان قوم لوط للجوبة المنطقية في الحوار قائلاً : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا
اخرجوا آل لوط من قريبتكم

- كما يحكي فقدان قوم ابراهيم للجوبة المنطقية عن التسائلات الواردة في الحوارات الطويلة ويقول :
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه

هذا التعبير يستبطن نسبة السفاهة اليهم ؛ لانهم عند ما بلغوا طريقاً مسدوداً وافتقدوا الدليل
قالوا :لاتحاجوه بل اقتلوه لكي تتخلصوا منه.

يقول الشيخ الطوسي : "انهم لما عجزوا عن جوابه بحجة عدلوا إلى ان قالوا اقتلوه أو حرقوه" [24]

كما يقول الشيخ الطبرسي :

"وفي هذا تسفيه لهم إذ قالوا حين انقطعت حجتهم لا تحاجوه، ولكن اقتلوه أو حرقوه، ليتخلصوا
منه" [25].

وكما هو معلوم فإن إطلاق كلمة الجواب – والذي يتجلى ويتمثل معناه الحقيقي في كلام يذكره أحد طرفي الحوار لرد كلام الطرف الآخر – على أعمال وحشية وأساليب غير إنسانية مثل القتل والتحريق يدل على أن التوجه القرآني يكون توجهاً حوارياً وأن للقرآن تركيز على اعتبار الحوار كعنصر أساسي في الرواية .

ثانياً : عرض مقولات أطراف الحوار بتأنٍ تام

إنه بالنظر إلى القرآن يعلم مدي إهتمامه بنقل أقوال أطراف الحوار وأفكارهم، والشاهد على ذلك ما ذكرناه من ورود مفردة "قال" 527 مرة .

المحور الثالث : ثقافة الحوار حسب الرؤية القرآنية

ونتحدث عن موضوعين :

* آدابه

* مجالاته

أولاً : آداب الحوار في القرآن

تستفاد من القرآن الآداب التالية للحوار :

ينبغي في الحوار ابتناؤه على أصل المساواة وعلى الجميع أن يستهدف البحث عن الحقائق والواقعيات والكشف عنها وإلا فلانتيجة يمكن توخيها من الحوار، ورغم أن أحد الأطراف قد يكون بمستوي علمي أرفع من الطرف الآخر ألا أن شرط الحوار - من وجهة نظر القرآن- سعي أطراف الحوار لإيجاد فضاء الإستماع وما يمكنه أن يكشف عن الحقيقة. وهذا التكافؤ بين الطرفين لابد يترسخ ويتعمق إلى حدٍ يكونا متكافئين من حيث الإستعدادات النفسية أيضاً، حتي يتمكنوا بذلك من الحوار واستمراره بهدوء.

الاية فبشر عباد الذين الخ ترسم لنا وضعاً لا يكون الكلام فيه صادراً عن فرد بل عن جمع - أي عباد - والعمل بالاية يعني سعي الجميع لاستماع كلام بعضهم الآخر .

يمكن استفادة هذا المبدأ أيضاً من الآيات التالية :

إنا أو إياكم لعلّى هدي أو في ضلال مبين[26]

قل لا تسألون عما أجرمنا ولا تسأل عما تعملون [27]

2 - الإستماع إلى الإدعاء والتأني فيه

على المحاور أن يصغي إلى مدعيات المخاطب بدقة تامة. وهذا المبدأ يستفاد بوضوح من الآية الكريمة فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه إن من يريد أن يتكلم ولا يستمع إلى الآخرين وأن يستمع الآخرون إليه ولا يتكلمون ليس ممن تشمله البشارة الإلهية الواردة في الآية الشريفة. وكما هو معلوم فإن مقاطعة من يتحدث أو ممارسة العنف ضده تنافيان قاعدة "الإستماع" القرآنية.

3 - تحكيم الجو العلمي وتجنب العاطفة

على طرفي البحث أن يسعيا لأن تكون مطارحاتهما علمية متجنبين بذلك الأجواء العاطفية وما يثير الأحاسيس. ينظر لإثبات ذلك إلى الآيات التالية :

"هَآأَ نَزْتُمْ هَوُلاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ" [28]

"إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبِدَالِغِيهِ" [29]

"أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [30]

وشدة تأكيد القرآن على علمية وموضوعية الحوار بلغت إلى حد برز خطاب "هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ" كشعار للقرآن يمثل أهمية الحوار ومكانته فيه، فقد ورد هذا الخطاب في أربعة مواضع في القرآن : [البقرة : 111، الأنبياء : 24، النمل : 4، القصص : 75]

4 - فسح المجال لطرح الأفكار

رغم أن بعض الأفكار تعد ساقطة علمياً من وجهة نظر الإسلام ألا أنه لا يريد للإنسان أن يعيش حالة من الخوف في مجال العقيدة والفكر، كما لا يريد أن تتخلل عقائده فراغات أو نقاط سوداء، بل يريد له التفكير بحرية تامة، فاتحاً أمامه الآفاق لكي يكون على بصيرة. وهذا ما يمكن استفادته من هذه الآية :

وإنا أو إياكم لعلی هدی أو ضلال مبين

5 - البدء بالنقاط المشتركة واعتمادها في المناظرة

يستفاد من الآية تعالوا إلى كلمة سواء أن على أطراف الحوار أن يكتشفوا قبل كل شيء نقاط الاشتراك بينهم لاعتمادها في بناء الحوار، فإن " الكلمة " - والتي ذكرت في الآية - تشكل المادة في الحوار، والحوار عبارة عن عملية تعتمد تبادل الكلمات.

إن الحوار لا يثمر في الفراغ وفيما إذا لم ينطلق من مشتركات، فلا بد لأجل أن يثمر الحوار أن يسعى الطرفان لإفترض المشتركات يعتمدونها في كلماتهم.

حكي أن سقراط كان يبدأ المناظرين بنقاط الاتفاق بينهما، ويسأله أسئلة لم يكن لخصمه تجاهها إلا أن يجيب عليها : بنعم، فكلما عرض عليه سؤالاً قال : نعم، ويظل ينقله إلى الجواب تلو الجواب، حتى يرى المناظر أنه أصبح يقر بفكرة كان يرفضها من قبل.

6 - التجنب عن الطعن والسب

من المحاور الأساسية لوصايا القرآن في مجال الحوار التجنب عن استخدام الطعن والاستهزاء والتحقير، يقول سبحانه : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم[31]

7 - ختم الحوار بهدوء

إن نهاية الحوار كبداية الحوار لابد أن تتم في جو هادئ بعيد عن أي انفعال مهما كانت النتائج، يقول سبحانه : "أَمْ يَحْقُولُونَ أَفَوْتَرَاهُ قُلْ إِنَّ أَفْتَرِيَّتُهُ فَعَلَىٰ إِرْجَإَمِي وَأَنَا نَذَىٰ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ"[32]، ويقول أيضاً : "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ؕ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ؕ لَا تَذِذْغِي الْجَاهِلِينَ"[33].

ثانياً :مجالات الحوار

إن توصيات وتعليمات القرآن حول الحوار – والتي أشرنا إليها - تهدفان إلى تعميق أبعاد الحركة الفكرية الفاعلة على ثلاثة مستويات :

- العلاقات الانسانية الحاصلة بين إنسان وإنسان مع قطع النظر عن دينهما وفكرهما .

إن الأصل في العلاقات القائمة بين الشعوب بعضهم مع البعض أن يعيشوا في إطار التفاهم والتعاون وذلك لأنه :

أولاً : إن الجميع يريدون لأنفسهم الخير، والخير لا يمكن حصوله إلا بأن يستفيد البعض من البعض.

ثانياً :الاختلاف سنة كونية حسب ما جاء في القرآن ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ففرض بعضهم لغتهم أو دينهم على البعض الآخر تصرف لا ينتهي إلى نتائج منطقية ومرضية .

أن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه قال سبحانه :

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) [34]

وقال سبحانه :

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[35]

وقال تعالى :

(ليس عليك هداهم ولكن إني يهدي من يشاء) [36]

- المواجهات الدينية الحاصلة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى

الحوار في القرآن ضرورة تقتضيها جميع الظروف، وانطلاقاً من هذا الأمل فقد دعا إلى حوار أهل الكتاب : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.. وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون).

كما قال سبحانه : (قل أتجادوننا في الله وهو ربنا وربكم).

كما قال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)

إذا كان القرآن يركز على الحوار بين الاسلام وبين أصحاب الديانات الاخرى ويدعو المسلمين لأن يوجهوا دعوتهم إلى متديني الديانات للانطلاق من القواسم المشتركة بينهم في المبادئ والقيم نحو اتخاذ قرارات تنفع الجميع، فالحوار بين أبناء الامة الاسلامية يحظى بأهمية أزيد وضرورة أكثر بلا شك، ويتعبير آخر إذا كان من اللازم أن يكون للمسلم موقف حوارى في مقابل أهل الكتاب - الذين يخالفونه في أصل دينه - فأهمية اتخاذ مثل هذا الموقف بين بعضهم تجاه البعض الآخر يحظى بدرجة أكبر بلا شك.

- اللقاءات الاسلامية الحاصلة بين مسلمين بما أنهم مسلمون مع قطع النظر عن المذاهب التي ينتمون إليها.

إن الامة الإسلامية بحاجة إلى حوارات علمية وإجتماعية بشكل مستمر، فالحوارات تطور مستويهم في الفهم والمعرفة والتفاهم والتعارف وتمكنهم من الخروج من دهايز سوء ظن بعضهم البعض.

فالحوار حسب النظرة القرآنية يشكل آلية أساسية للتقارب بين المذاهب والتحالف بين الدول الإسلامية ويمثل وسيلة فاعلة تحشد طاقات الأمة في مواجهتها للتحديات العالمية. وفيما يلي توضيح أكثر لدور الحوار في التقريب : دور الحوار في التقريب

وهذا الدور يتبين بالالتفات إلى المقدمتين التاليتين :

الأولى : إن الوحدة الإسلامية تعني أن يتوفر ما يلي :

- اجتماع الجميع على الجوامع المشتركة في عمل موحد

- عدم تحويل الخلاف المذهبي إلى صراع

- تجنب المعارك الجانبية

- عدم التنافس على إلغاء الآخر □

- توظيف جميع الطاقات في مشاريع متَّسقة يشدُّ بعضها بعضاً□.

الثانية :الموارد الخمس المشار إليها لايمكن أن تتوفر إلا بتوفر أموريلعب الحوار دوراً فعالاً في إيجادها، وهذه الأمور تمثل بعضها وضعية فكرية بينما البعض الآخر تمثل وضعية روحية في حين أن قسماً ثالثاً منها مرتبطة بالعمل :

الف. ما يرتبط بالفكر :

- لزوم الإنتهاء إلى نتائج علمية أفضل ؛

ودور الحوار في ذلك يتبين بالالتفات إلى أن من خلاله يتم تعاون من جانب الطرفين على معرفة الحقيقة والتَّوصُّل إليها، وذلك لإن الحوار في واقعه يكون أداة للبحث والتنقيب يكشف بها كل طرف ما خفي على صاحبه وآلية للاستقصاء والاستقراء في تنويع الرُّؤى يتمكن بها الطرفان من الإنتهاء إلى نتائج أفضل وأمَّكَنَ.

- لزوم التعارف؛

إنه بالحوار يتعرف كل طرف على وجهة نظر الآخر فيستدرك المفاهيم الخاطئة لديه عنه. ويتجلى هذا الدور بالإلتفات إلى أنه إذا لم يكن هناك حوار فإن كل طرف إما يبقى على جهله بالطرف الآخر ولا تتم له معرفة به أصلاً أو أنه وإن تمت له معرفة إلا أنها تحصل عن طريق واسطة ربما لاتكون المعلومات الحاصلة من جانبها دقيقة وصحيحة.

ب.ما يمثل وضعية روحية :

إن عدم استعداد كل طرف للتفاهم مع الطرف الآخر من الأسباب الكبرى للنزاعات والخلافات المذهبية، وقد نشأ ذلك - أي : عدم الإستعداد للتفاهم - نتيجة لسوء فهم البعض للبعض الآخر، فالواقع أن الذي مرت به المذاهب من تجارب في مراحل من التاريخ قد جعل أنصار كل مذهب شكواً بالآخرين شكوكاً سيئة، وقد ترسخت هذه الشكوك في أنفسهم إلى حد بنوا على أساسها تحليلاتهم واستنتاجاتهم وقراراتهم، فحصلت من جانبهم مواقف انفعالية لاتزال تستمر جملة عظيمة من هذه المواقف. والذي يحمل قابلية كبيرة لأيجاد الأرضية للتفاهم ورفع الشكوك الناشئة من دواعٍ واهمة بين المذاهب بعضها مع البعض، هو تشكل الحوار المذهبي على مستوى واسع. نحن تعودنا أن ننظر إلى مثل آية حرمة سوء الظن بالعين الفردية وأن نحملها على إسائة ظن فرد مسلم بفرد مسلم آخر مع أن الآثار التي تتركها إسائة الظن الاجتماعية الحاصلة بين المجموعات الإسلامية بعضها مع البعض عظيمة وجسيمة وخطيرة أكثر جداً.

- تقليص شدة التعصب وبعث مشاعر المحبة.

من المشاكل التي تواجهها الحركة التقريبية وجود عصبية حادة ترسخت جذورها في الموروثات الفكرية والمواقف الاجتماعية التاريخية، ولا شك أن في الأجواء المملوءة من التعصب والظروف المشحونة بالعداء لاتنفع أي محاولة للتقريب بين المذاهب. والدور الذي يلعبه الحوار في مثل هذه الأجواء والظروف تخفيف شدة التعصب وتقوية الأرضية للتحبب، وذلك لأن الحوار يجعل كلاً من الطرفين يلتقي بالآخر، يتكلم له ويستمع إليه، وهذه العملية لو تحولت إلى ممارسة دائمية فسوف تساهم مساهمة جذرية في تقليص حدة الخصومة وإيجاد المناخات الملائمة والداعية إلى الوحدة.

إن تقريب النفوس خصلة لازمة للحوار وإنها من نتائج الأولوية، فلو نتمكن من تحصينه برعاية ضوابطه القرآنية ونسعي لمحافظته من استغلاله للتفرقة بالإلتزام بآدابه العقلانية، فسوف تزداد قابلياته التقريبية.

ج. ما يرتبط بالعمل :

- التفاعل للخروج من الواقع المأزوم :

إن الحوار هو الذي يمكن أن يعطي الأمل المشرق في الخروج من الأزمة الحالية، والتحديات المصيرية

التي شهدتها ولا تزال تشهدها وتمر بها الأمة الإسلامية في شتى المجالات.

- التعامل والتعاون لبناء مجتمع أمثل ؛

إن الأمة الإسلامية لو تمكنت في ضوء الحوار من أن تزيد من معارفها وتحصل على التعارف فيما بينها وتحقق الأرضية لتفاهم بعضها مع البعض وتحل مشاكلها بالتعاون فسوف تتمكن من أن تتخذ خطوات فاعلة في عملية النهوض وصنع القرارات المصيرية بهدف بناء حالة مجتمعية إنسانية راقية تقوم على المباديء الإسلامية .

[1] - تاج العروس، الزبيدي ج 3 ص 162.

[2] - تفسير مجمع البيان، الطبرسي ج 9 ص 408 .

[3] - تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ج 13 ص 309 .

[4] - مفردات غريب القرآن قال الراغب الاصفهاني ص 89.

[5] - تفسير القرطبي ج 9 ص 28.

[6] - الميزان ج 12 ص 371 .

[7] - الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، ج 4 ص 228.

[8] - الميزان، ج 12، ص 374 .

[9] - تفسير القرطبي، ج 9 ، ص 27، صفحة 28.

[10] - هو نبيل علي صالح .

[11] - يقول الامام علي بن الي طالب (ع) : (لم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم - أي الملائكة - ولم تعترك الطنون علي معاقد يقينهم.... وقطعهم الإيقان به إلي الوله إليه) نهج البلاغة الخطبة 90 .)

[12] - البقرة: 256.

[13] - يونس: 99.

[14] - انسان: 3.

[15] - يقول الامام علي بن ابي طالب عليه السلام : (...لم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولاتولاهم غل التحاسد، ولاتشعبتهم مصارف الريب ولاقتسمتهم أخياف الهمم .)

[16] - هود: 118 - 119.

[17] - الروم: 22.

[18] - طه: 44.

[19] - نحل: 125.

[20] - بقره: 111.

[21] - الكهف: 34.

[22] - الكهف: 37.

[23] - المجادلة: 1.

[24] - التبيان، الشيخ الطوسي ج 8 ص 199.

[25] - تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي ج 8 ص 19.

[26] - سبأ 24.

[27] - سبأ 25.

[28] - آل عمران: 66.

[29] - غافر: 56.

[30] - المافات: 156-157.

[31] - انعام 108.

[32] - هود: 35.

[33] - القصص: 55.

[34] - بقرة 256.

[35] - يونس 99.

[36] - بقرة 272.